- المقاربة الأسلوبية في نقد الأدب

تتقاطع الأسلوبية مع البنوية في كثير من الأصول و المظاهر، حيث انبثقت من الفكر اللّغوي و الأدبي قبل البنوية ، غير أن المؤسس لهذا المنهج هو "**تشارل بالي** " تلميذ دوسوسير ، و تأتي أهمية "**بالـــي**" أنه – "... و للمرّة الأولى في تاريخ الثقافة الغربية نقل درس الأسلوب من الدّرس البلاغي- بتأثير اللسانيات عليه منهجا و تفكيرا- إلى ميدان مستقل. و صار يعرف بميدان الدّرس الأسلوبي أو الأسلوبية (1) ".

يطلق على الأسلوبية في الانجليزية اسم Stylistics و في الفرنسية La Stylistique ، و دارس الأسلوب Stylistician و كلمة Style يقصد منها الطريقة الخاصة في الكلام ، و تعود جذور الكلمة إلى اللاتينية Stylas بمعنى عود من الصّلب كان يستخدم في الكتابة ، ثمّ تحولت لتعني "... طريقة التعبير عند الكاتب (2)".

لقد أسهمت عدّة مدارس أوربية و توجهات في تنمية الاتجاهات الأسلوبية التي ترتكز على الأبعاد اللّغوية في المقاربات التحليلية ، و تمثل ذلك في "... الأسلوبية التعبيرية عند الفرنسيين ، و أسلوبية الحدس المعتمد على فكرة الدائرة الفيلولوجية لدى المدرسة الألمانية ، كما تمثلت في كتابات " **فوسلبــر**" و "**سبـــتزر**" و أعمال المدرسة الإيطالية و الاسبانية على وجه الخصوص كما تمثلت في كتابات " داما سو ألونســو (3)".

**تعريف الأسلوب** :

توجد خلافات شديدة بين الدّارسين في التعامل مع الأسلوب ، و ذلك لتعدد المدارس و الاتجاهات و الرؤى ، حيث توظف كل مدرسة أدوات نظرية و منهجية محددة ، و عليه جعل منذر عياش (4) تعريف الأسلوب ثلاثة أقسام :

1- **التعريف الشائع** :

اعتبر الناقد عياشي من جملة التعاريف الشائعة للأسلوب ، أنه هو الرّجل كما ورد في تعريف "**بيفـــون** " ، و أيضا الأسلوب هو إرث الماضي و عطاء الإنسانية ، و طريق في الكتابة لكاتب من الكتاب ، و طريق في الكتابة لجنس من الأجناس ، و طريق في الكتابة لعصر من العصور.

**2- تعريف الكتاب :**

سنوجز في تعريفات الكتاب جملة التعاريف ، و تتوزع إلى قسمين ، و ذلك حسب خلفية الكاتب :

أ- **القسم الأول** :

يكون الأسلوب سمة أصلية من سمات الفكر الفردي .فشوبنهاور يقول عنه : أنه " **مظهر الفكر**" ، في حين يرى "**فلوبيــــر**" بأنه "الأسلوب وحده طريقة مطلقة لرؤية الأشياء" ، أمّا ماكس جاكوب فيقول : " الإنسان هو لغته و حساسيته".

ب- **القسم الثاني** :

يكون الأسلوب في هذه الحالة أداة ، و نعني بذلك ، هو شحن اللّغة بطريقة تعبيرية مخصوصة.

3- **التعريف اللّساني** :

بعد ظهور اللسانيات في فاتحة القرن العشرين على يد "**سوسيـــر**" تغيّرت اتجاهات الدّراسات اللّغوية و أصبحت أكثر علمية ، لتتحول الأسلوبية إلى جزء من الدّرس اللّساني.

و قد عرف كثير من اللسانيين الأسلوبية ، بأنها عبارة عن دراسة للتعبير اللّساني ، أي التركيز على خواص الكلام ضمن الخطاب ، و عرّفها " **بييــر جيـــرو**" بأنها " طريقة للتعبير عن الفكر بواسطة اللّغة".

إن أهم تميز و تنوع فردي يتعلق باللّغة الأدبية ، بعامة لكل كاتب طريقته الخاصة في التعبير و البوح ، فمثلما للمتبني خصوصيته الشعرية ، قياسا بالبحتري و أبي تمام ، فإن أسلوب طه حسين يختلف اختلافا جذريا عن أسلوب العقاد و ميخائيل نعيمة ، و شعرية خليل جبران هما خصوصيتها إذا قارناها بشعرية بدر شاكر السيّاب ، و سردية الطّاهر و طّار غير سردية واسيني الأعرج ، و عموديات محمد العيد آل خليفة ليست شبيهة بعموديات ابراهيم صدّيقي ، و هكذا .

إنّ التناول الأسلوبي في مثل هذه الحالات يصف و يفكك اللّغة الأدبية الموظّفة "... لأنها تمثل التنوع الفردي المتميز في الأداء ، بما فيه من وعي واختيار ، و بما فيه من انحراف عن المستوى العادي المألوف ، بخلاف اللّغة العادية التي تتميز بالتقائية ، و التي يتبادلها الأفراد بشكل دائم و غير متميز(1).

**الاتجاهات الأسلوبية** :

مثلما مثل المناهج النقدية المعاصرة الأخرى كالبنيوية التي أصبحت بنيويات ، و السيميائي سيميائيات ، فالأسلوبية تحوّلت إلى أسلوبيات ، من حيث القراءة و التفسير و التأويل ، و أ نّ أسلوبية البارحة ليست هي أسلوبية اليوم ، بحكم تجدد النّص الأدبي لغة و جنسا ، الذي يدعو آليا إلى تجدد على مستوى الآليات و الأدوات ، فالأسلوبية مثل غيرها من المناهج تعبّر عن "... متغيرات لا تنتهي (1)".

و قد أدى تعددها إلى "... ميلاد نزعات فردية في النظر إلى الأسلوب ... كما أدى إلى ميلاد اتجاهات فيها ، فدرس الأسلوب ظاهرة من الظواهر ، و ذلك لموضوعية العلم ، كما درس فاعلا في موضوعه و مؤثرا فيه ، فتعددت – نتيجة لذلك - اتجاهات النظر فيه بحسب الدّارسين وانفعالاتهم به (2)".

نتيجة لكلّ هذا التنوع على حسب المرجعيات و البلد و اللّغة ، صار للأسلوبية "... اتجاه عام هو دراسة الأسلوبيات العامة ، واتجاه خاص ، و هو الدّرس الأسلوبي الخاص بلغة من اللّغات ، فعزز هذا استقلالها –علما- من الدراسات اللسانية ، ثمّ نشأت عن ذلك مدارس استفاد معظمها من الدّرس اللّساني الذي أنشأه "**سوسيـــر**" في بداية هذا القرن ، نذكر منها : أسلوبية التعبير ، و أسلوبية الفرد أو الأسلوبية المثالية ، و الأسلوبية التكوينية ، و الوظيفية ، و البنوية . و تفرعت هذه المدارس إلى مذاهب تدرس الأسلوب صوتا ، و صرفا ، و نحوا و إحصاء (3).

تبقى التصفيات الأسلوبية متغيرة على حسب رؤية النقاد و منهجيتهم ، فإذا كان منذر عياشي قد أورد كل هذه الأنواع ، فإنه يرى في مرحلة لاحقة ، أنه يمكن تلخيص الأسلوبية في توجهين كبيرين ، توجه يسميه أسلوبية التعبير الذي يقوم على "... إبراز دور العلاقات التي تربط بين الشكل و التعبير الوجداني المتضمن فيه... من حيث هي حدث لساني لخطاب نفعي ، يتجلى في استعمال الناس له في حياتهم الإيصالية اليومية (4)".

و توجه آخر يسميه أسلوبية الفرد ، حيث يلتقي مع أسلوبية التعبير في البحث عن البنى اللّغوية وظائفها داخل النظام اللّغوي للّغة اليومية ، لكنه تختلف عنها في ".... أنه يأخذ طابع النقد. و لذا فهي تهتم بلغة الخطاب الأدبي .و هذا ما يفسر دراسة أصحاب هذا الاتجاه للّغة المؤلفات الأدبية (5)".

لقد استفادت الأسلوبية في حركيتها بعلم اللّغة ، و الألسنية الحديثة ، حيث كانت لنظريات "... دي سوسيــر و إسهامات " جاكوبسون" و تصورات " تشومسكي " بعد ذلك أثر حاسم في إثراء مسار الدّراسة الأسلوبية ، كما أن علم الأسلوب تربطه و شائج قوية بالبلاغة الجديدة على وجه الخصوص ، إذ إن البلاغة في جوهرها تميل إلى هذا الطابع التعقيدي و علم الأسلوب هو الذي يزودها بالنتائج المشكّلة للقواعد العامة بعد استخلاصها من التحليلات النصية المتعددة (1)".

ا**لأسلوبية في العالم العربي** :

أخذت الأسلوبية حيّزا كبيرا في الفضاءات النقدية المعاصرة ، واستطاعت أن تشكل حقلا تجريبيا خصبا في الممارسات النقدية ، و يعود ذلك في رأينا إلى أنها استأنست بالبلاغة العربية ، فطوّرت من آلياتها ، حيث أتت بنتائج في غاية الأهمية سواء عبر الدراسات و الرسائل الجامعية أو عبر الإصدارات في المجلات أو الكتب ، فقد كان الباحث التونسي عبد السلام المسدّي في كتابه "**الأسلوبية و الأسلوب**" رائدا في إنارة هذا المنهج ، فقد كان طموحه أن "... يجعل هذا التيار بديلا لغويا للنقد الأدبي (2)"...

و في نظر صلاح فضل لم يلبث "**المســـدي**" أن " ... أدرك اقتصار الأسلوبية على تمثيل إحدى التجليات النقدية ، فأخذ يراوح بين البحوث الألسنية المعمقة و الدراسات النقدية التقنية التطبيقية ، و قام بدور المؤرخ البيبليوجرافي (3)".

و في اعتقادنا تبقى الأسلوبية في مصر و المغرب العربي من أكثر المناهج تناولا بالدّراسة ، و تبقى أسماء مثل : الشيخ أمين الخولي في كتابه " **فن القول** " أحمد الشايب في كتابه "**الأسلوب**" ، و عبد السلام المسدّي في "**الأسلوبية و الأسلوب** " ، و محمد عبد المطلب في " **البلاغة و الأسلوبية**" و صلاح فضل في " **علم الأسلوب مبادئه و إجراءاته"** ، " **أساليب السرد في الرواية العربية**" **أساليب الشعرية المعاصرة**" ، " **بلاغة الخطاب و علم النص**" روّاد في هذا المنهج.